وشرح البخاري للكرماني وشرحه للعيني الحنفي وشرحه للشيخ شهاب الدين
القسطلاني على قدر كتابي له على شرحه وخطي متميز فيه واظنه يقارب
النصف وكنت اذا جلست معه كاني جالست اكبر ملوك الدنيا الصالحين
العادلين وكان اذا احضر عنده اكبر المعتقين بمصر يصير بين يديه كالطفل
وكذلك الامرا والاكابر وكان كبير الكشف لا يكاد يخطر لي خاطر الا ويقول
قل ما عندك ويبطل التاليف حتى افرغ وكنت اذا حصل لي صداع
حال المطالعة يقول لي انو الاستشفا بالعلم فانوي به فيذهب الصداع
لوقته وقال رضي الله عنه لي مرة من صغري وانا احب طريق القوم
وكان اشتغالي بمطالعة كتبهم والنظر في احوالهم حتى كان الناس
يقولون هذا لا يجي منه شي في علم الشرع فلما الفت كتابي شرح البهجة
وفرغت منه استجده جماعة من الاقران وكتبوا نسخة منه كتاب
الاعمي والبصير تنكيتا علي لكونهم رفيقي في الاشتغال كان ضريرا قال
رضي الله عنه وكان وقتي رايقا وظاهري بحمد الله تعالى محفوظا وكنت
مجاب الدعوة لا اكاد ادعو على انسان الا ويقصمه الله تعالى فاشار
علي بعض الاوليا بالتستر بالفقه وقال استر الطريق فان هذا
ما هو زمانها فلم اكد اتظاهر بشي من احوال الطريق والقوم الى
وقتي وحكى لي يوما بداية امره من حين جا مصر الى وقت تلك
الحكاية وقال احكي لك امري من ابتدايه الى وقتنا هذا حتى تحيط
علما بذلك كانك عاشرتني من اول عمري فقلت له نعم فقال جيت من
البلاد وانا شاب فلم اعكف على احد من الخلق ولم اعلق قلبي به
وكنت اجوع في الجامع الازهر كثيرا فاخرج في الليل الى قشيرات البطيخ
حوالي الميضاة وغيرها فاغسلها واكلها الى ان قيض الله لي رجلا كان يعمل
في الطواحين فصار يتفقدني ويشتري لي ما احتاج اليه من الكتب

والكسوة

ذلك وكان ... ان كان ... في يوم الاثنين ويوم الخميس فقط فوق سطح جامع الازهر

والكسوة ويقول لي يا زكريا لا تطلب من احد شيا ومهما طلبت جيتك به فلم يزل
كذلك سنين عديدة فلما كان ليلة من الليالي والناس نايمون قال لي قم معي
فقمت معه فاوقفني على سلم الوقادة الطويل بالجامع الازهر وقال اصعد
فصعدت الى اخره فقال انزل فنزلت ثم قال تعيش حتى يموت جميع اقرانك
وترتفع على كل من في مصر من العلما وتصير طلبتك مشايخ الاسلام في حياتك
حتى يكف بصرك فقلت ولا بد من العمى فقال لا بد ثم انقطع عني فلم اره من
ذلك اليوم ثم تزايد علي الحال الى ان اكرهني السلطان قايتباي على
القضا حين ابيت وقال ان طلبت نزلت بين يديك اقود بغلتك ماشيا حتى
اوصلك الى بيتك قال فتوليت واعانني الله تعالى على القيام بها ولكن
احسست من نفسي انني تاخرت عن مقام الرجال فشكوت ذلك لبعض
الاوليا فقال لم تم الا تتقدم ان شا الله تعالى فان العبد اذا راى نفسه
متقدما فهو متاخر واذا راى نفسه متاخرا فهو متقدم فسكن روعي بذلك
قال رضي الله عنه وما كان احد يجلني كما يجلني السلطان قايتباي كنت
احط عليه في الخطبة حتى اظن انه ما عاد قط يكلمني فاول ما اخرج من صلاة
الجمعة يقوم يتلقاني ويقبل يدي ويقول لي جزاك الله خيرا فلم تزل الحرمة
بيننا حتى وقع بيننا الوقفة فكان ماسكا للادب معي ما كلمني قط كلمة
تسوني ولقد طلعت له مرة فاغلظت عليه القول فاصفر لونه فتقدمت
الى يده فقبضت يدي وقلت له يا قايتباي والله انما افعل لك معك
الا شفقة عليك وسوف تشكرني عند ربك واني والله لا احب ان
يكون جسمك هذا فحمة من فحم النار فصار ينتفض كالطير المذبوح قال
وكنت اقول له ايها الملك تنبه لنفسك فقد كنت عدما فصرت وجودا
وكنت رقيقا فصرت حرا وكنت ماموزا فصرت اميرا وكنت اميرا فصرت
ملكا فتجبرت ونسيت مبداك ومنتهاك الى اخره وحكى لي رضي الله عنه